دلالات توظيف المتن التراثي في النص الشعري المعاصر

– دراسة تناصية –

أ. عبد القادر عبو

المركز الجامعي، سعيدة.

الرمز التراثي

يمثل التراث الوجه الآخر للعملية المعقدة – عملية الاتصال والانفصال– وهو جزء من إشكالية الحداثة المطروحة على الفكر المعاصر الفلسفي والأدبي، وبالتالي لا يمكن لأي دراسة أن تنعزل بالتحليل بمستوى دون الآخر في ظل هذه الثنائية المتداخلة في أدبنا المعاصر، هذه الدراسة التي تحدثت عن تجليات التراث في شعرنا الحديث والمعاصر، وتجليات الحداثة في شعرنا القديم، واتخذ الشعراء المعاصرون من التراث في العملية الإبداعية مواقف متعددة منها:*

-موقف الهرب من التراث.

-موقف الهرب بالتراث.

-موقف استلهام التراث.

يهمنا في هذه المداخلة الموقف الأخير المتمثل في استدعاء التراث، وهو موقف لا يجعل من نماذج التراث مسلمات علوية، بل يعتقد أنه مجموعة من الوقائع والتجارب والتساؤلات تكمن فيها الطاقة الإبداعية في كل عصر، ومن هنا حاوره الشعراء المعاصرون ووظفوه وأعادوا صياغته إيمانا منهم بقوته وكونه عامل إلهام.

يقول صلاح عبد الصبور:" التراث ليس تركة جامدة ولكنه حياة متجددة، والماضي لا يحيا إلا في الحاضر"**

ويرى أن حركة الحداثة" لم تنظر إلى التراث لتهدمه أو ترفضه إلا أنها نظرت إليه لكي تعيد بناءه من جديد."

ويرى البياتي في التراث ثمرا زاحفا نحو المستقبل يكتسب أصالة جديدة في مساره مميزا بين دلالاته الثابتة التي تمثل الانقطاع، والدلالات المتغيرة التي تكفل التواصل" ويعتقد أن" إعطاء الحياة الحقيقية لتراثنا العربي القديم تتم عن طريق التجديد لا عن طريق التقليد والتقوقع والتخلف مما يحاوله بعضهم باسم الحفاظ عليه."

ويعلن خليل حاوي بكل وضوح أنه كان وجماعته"يحاولون واعين أن تحدث ثورة تجعل الشعر الحديث ينفصل عن التراث الشعري العربي بقدر ما يتصل به، وكان كل واحد منا يحاول الانطلاق مما يراه عناصر حية في التراث، وأعتقد أن كل نهضة شعرية في أمة تحمل تراثا شعريا عريقا متراكما لا بد لها من العودة إلى الينابيع الأصيلة التي كانت مصدر كل نهضة في الماضي..."

وفي بداية الثمانينات يتساءل أدونيس ما التراث؟ ويجيب... التراث هو القوة الحية التي تدفعنا باتجاه المستقبل، وما يهمنا من التراث اليوم في ضوء اتجاه المجتمع العربي نحو التغيير يكمن في العناصر التراثية التي تحتفظ بالقدرة على إضاءة الحاضر والمستقبل، يجب أن نفهم التراث بمعناه الكياني لا التاريخي."

ولدراسة أثر التراث في الشعر المعاصر يتطلب ذلك دراسة عنصر الخيال الذي بواسطته تم تشكيل الصورة الشعرية في عملية اندماج لعناصر شتى منها التراث واللغة والخيال والإيقاع.

وعلاقة الخيال بالنص الشعري المعاصر قامت على أساسها نظرية خاصة بالدلالة تنظر إليه بوصفه أداة الخلق الرئيسية وواسطة التشكيل والرؤيا عن طريق نقل الدلالة الشعرية من حالة الكمون إلى حالة التجسيد والبروز. وتكمن أهمية الخيال في القول الشعري

في أثره من مناقشات وآراء حاولت التنظير له انطلاقا من أراء أرسطو الذي ربط الخيال بالوهم، وجعل العقل وصيّا عليه وحدّد وظيفة الأسلوب بالإقناع.

وامتدت هذه النظرة إلى الفكر الفلسفي الإسلامي عند كل من ابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد.. " ثم إلى البحث البلاغي الذي وسّع من مجال البحث في فهم الخيال وعلاقته بالتعبير المجازي عند كل من عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني وغيرهم من الذين ركزوا نظرتهم على أساسين يقوم عليهما الخيال وهي: العقلانية والحسّية ممّا يتيح لمفهوم الصنعة أن يتموقع في الممارسة النقدية بحضور مكثف يمارس توجيها مهما في النقد الشعري العربي القديم.

وقد تولّد عن هذه النظرة القديمة إلى الخيال نظرة جزئية تتسم بالوضوح والعقلانية.. لولا العقل الصوفي الذي أدرك سرّ الخيال في التصور والإدراك والحدس والرؤيا " فمنح للخيال مرتبة سامية توازي مرتبة العقل وقوته عند الفلاسفة."[1]

وإن كان بعض النقاد يرجعون جدّب الخيال العربي وقصوره وسطحيته وماديته إلى تأثير المحيط المادي على نفسية العربي وتصوراته، انطلاقا من وجوده في فضاء جغرافي ممتد تشكل الطبيعة الصحراوية أفق رؤيته البصرية غير المحدودة بحواجز تجعله يتطلع إلى ما ورائها. وكذلك نجد النقاد القدامى لم يتعمقوا سبر أغوار الخيال وأبعاده في التجارب الشعرية العربية القديمة، بل انشغلوا بجوانب تحيط بالعمل الشعري في مظهره الخارجي وربّما قد يعود إلى طغيان الهدف التعليمي لا النقد الجمالي.

– إنّ البنية الخيالية ودلالتها في النص الشعري المعاصر تمر بمراحل النمو والتراكم والاتساع، فهي في شعرنا العربي القديم مألوفة وواضحة وبسيطة لا تصدم المتلقي ولا تقلقه غير أنّها مع الرومانسيين في العصر الحديث دخلت فلسفة الخيال لتنظيم الرمزية في الخيال والرمز ونتيجة المثاقف العربي / الغربي ارتقى الخيال إلى البحث الفلسفي المعمق فهو عند" كوليردج " القوة العليا القادرة على تمثل الأشياء،

وعملية اكتشاف جديد للواقع، كما وضع فاصلا دقيقا بين الخيال والتصور، فالتصور عملية ترابط والخيال عملية خلق[2]

وعند مدرسة الديوان التي كان لها دور كبير في بلورة هذا المفهوم أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بأعماق النفس، ومن ثمّ أصبح الخيال بنية تساهم مع البنيات الأخرى في تكوين النص الشعري ودخلت كثير من المصطلحات البلاغية عالم الخيال تحت ما سميّ بالصورة الشعرية.

وقد جسّدت قصائد أدونيس، والسياب وعبد الصبور هذا التحوّل والتوظيف الجديد للخيال في بناء النص الذي أضحى صورة شعرية، ويتحقق وجود الخيال الشعري كبنية في النص من خلال الصورة والرمز والأسطورة ضمن علاقة متداخلة بين الوظيفة الدلالية والنفسية لكل منها لان أهم ما في الخيال وظيفته النفسية التي لا يمكن التعبير عن الدواخل بها إلا بإفراغ اللغة من محتوياتها لإعادة شحنها من جديد.

وسوف نركّز في هذه الصفحات على بنية الرمز وتأمّل دلالته بوصفه خاصية أساسية من خصائص الخيال الشعري الذي تمثّل لغته فعالية ترميزية يستحيل فهم دلالات المفردات داخل النتاج الشعري بالاقتصار فقط على المتواضع منها بل تتجاوز ذلك لتأخذ ظلالا وإيحاءات لها علاقة بالمستوى النفسي وبالتجربة الشعرية.

وطرق استلهام التراث وتوظيفه في الشعر المعاصر تجلى في (التراث الديني- التراث الشعبي- الأساطير- الرموز- الأقنعة- المرايا- الصور- الأصوات والنغمات-).

وقراءتنا لبعض النصوص الشعرية المعاصرة تدّل على لجوء أصحابها إلى الرمز لتحقيق استقلالية النص وتوظيف خصائصه الكامنة فيه ' عن طريق تجاوز المستوى الرمزي الأول الدال على اللغة بما هي نسق رمزي إلى المستوى ثان من الرمز محتفظ بنوع من الاستقلال عن تأثير السّياق الذي يتميّز به عن غيره من ألوان المجاز، ومهما كان للرمز الشعري امتداده في السياق الماضي فإن ارتباطه بالتجربة الشعرية الحاضرة

في قوتها التعبيرية تعطيه قيمة جمالية تعيد توهجه من جديد إذ لا يصبح يمثل دلالة تاريخية ميتة مستهلكة الأبعاد لم تبق فيها إلا صفة الديمومة والقدم وهذا لا يكسبها أي قيمة.وبالتالي فإنّ الشاعر المعاصر تفطن إلى قيمة الرمز وجماليته في بناء النص عندما أحسن استثمار إمكاناته في نقل المشاعر المصاحبة للموقف وتحديد أبعاده النفسية، فالتعامل مع الرمز هو أساس الكتابة الشعرية التي لا تتعامل معه كمقولة مجرّدة من كل الإيحاءات غير الموازية لحالات النفس في تجربتها، إنّ الدلالات الرمزية المعانقة لتجربة الشاعر ورؤيته الكلية للوجود والعلاقات الكامنة فيه تنقذ رموز الشاعر التاريخية من ماديتها وتفتحها على الكونية لأنها تمثل ملتقى الإشراقات الفكرية، وبالتالي فإنّ الرمز بدلالاته المبتكرة ما هو في حقيقة الأمر إلاّ لغة الشاعر الخاصة بطقوسها في اكتناه الحلم والتجربة، وحين تصبح اللغة طقسا فإنها تكتسب القدرة على اللحاق بالحلم في تموجاته وتضحي لغة هيولية لا لغة نهائية اتسعت فيها ساحة إيحاء الرمز لاستيعاب الدلالات المتقابلة أو المتناقضة، وما دامت شعرية الكتابة في لغة النص المعاصر استحدثّت قوانينها البنائية وأنساقها، واخترقت القوانين المألوفة في التركيب النثري أو الشعري على السواء محطّمة بذلك العلاقات والبنى التي يتأسس عليها هذا التركيب اللغوي وأعادت تشكيل لغة جديدة في بنياتها اللغوية التي يمثل الرمز أحد عناصرها الجمالية عبر حدس شعري ورؤية ذاتية، فإنّ التكثيف الشعري للغة ولعناصرها أخذ الرمز منه مساحة كبيرة لأنّه ينطوي على معنى ظاهري مباشر، وآخر باطني وغير مباشر، فيه الواقعي والخيالي فهو" تكثيف للواقع لا تحليل له، كشف عن المعنى الباطن والمغزى العميق، تجريد كلي وإيحاء خصب قادر على البث المتواصل والتفجير المستمر، والتأويل المتعدّد."[3]

يدخل النص الشعري المعاصر مجال التأويل والاحتمال بلغته الرامزة الدلالية في كثافة إيحائية تتكاثف فيها البنيات والأنساق في وحدة التناغم والتداخل إلى حدّ التفجير

العلائقي الذي يجعل القارئ متنقلا إلى عالم اللاتناهي عن طريق التذوق الجمالي لهذا التشظي في النص الذي يستند على كل بنية في دلالاتها الغنية بالإيحاءات وطاقات الغموض بوصفها شفرات دالة تجعل النص تصين يمثل الرمز الوجه الآخر للسنص اللامرئي أو المحتمل.

ولذلك يقول أدونيس:" الرمز هو ما يتيح لنا أن نتأمل شيئا آخر وراء النص، فالرمز هو قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء، إنه اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة، أو هو القصيدة التي تتكوّن في وعيك بعد قراءة القصيدة، إنّه البرق الذي يتيح للوعي أن يستشف عالما لا حدود له، هو إضاءة للوجود المعتم، اندفاع نحو الجوهر"[4] إنّ طاقات الاحتواء التي يمتلكها النص الشعري المعاصر آتيه من كثافة الرمز فيه الذي يختزل التفسير والالتقاط والتعبير المباشر على الأفكار والواقع، فهو يبعد لغة الشعر عن الآلية ويعطيها البعد الكوني في استيعاب المطلق جماليا وروحيا.

وهذا التأسيس للغة الرمز في شعرنا المعاصر لم يعهده الذوق والتلقي ممّا أحدث نوعا من التململ في إدراك قيمته الجمالية. نظرا لخصوصية التجربة في توظيفها لجميع بنيات النص والذي أثار وأقلق وفاجأ وأدهش ولكنّه أزاح الأستار والحجب ليطل القارئ من كوّة الرمز إلى أعماق الباطن الذاتي للشاعر أو للاتحاد بمطلقات الكون في مستوياتها المتعّددة.

نستهدي بطرائقية المقاربة الدلالية في تذوق المعنى الجمالي لدلالة الرمز بوصفه بنية تمثل نقطة الإشعاع والتوتر بين المبدع والقارئ والتي تحيط ظلالها على كامل بناء النص بحيث يكون في كثير من الأحيان هو البنية الدالة في النص أو هو النص المغيّب غير الحاضر ظاهريّا ولكن ظاهر بالتجلي في لحظات المكاشفة والتأويل.

وما يلفت الانتباه أنّ الاشتغال بالرمز من منظور جمالي ومن ورائه تراكم معرفي وفلسفي وفكري أضحى بعدا من أبعاد بنية القصيدة المعاصرة، التي سمت بالترميز

إلى المستوى لتحقيق الاتحاد بين الذات والكون وبين البعد التاريخي والبعد النفسي وأيضا بين إبداع الشاعر وتأمل القارئ في الباطن وفي اللاوعي الجماعي الإنساني والكوني على السواء. يقول"إليوت": " الرمز يقع في المسافة بين المؤلف والقارئ. لكن صلته بأحدهما ليست بالضرورة من نوع صلته بالآخر، لأنّ الرمز بالنسبة للشاعر محاولة للتعبير ولكنه بالنسبة للمتلقي مصدر إيحاء."[5]

ولأنّ اللغة لا تستطيع أن تعبّر عن باطن الوعي الغائر في النفس الإنسانية وهي خارجة عن نطاق الرمز والصورة، ولأنه لا يمكن أن ندرك النص الشعري بمعزل عن فهم الخلفية النفسية التي تمثل خميرته ومادته التي بفعلها خرج إلى الوجود الفعلي الإبداعي.

ما يمكن أن نشير إليه ونحن نقرأ في كيفية تمكّن الشاعر المعاصر من امتلاك بنية الرمز في كليتها وتحريرها من صورها البسيطة الساذجة المرتبطة بأدبية الدلالة أو المعنى وكيف استوحى الرموز الكونية والتراثية وأعطاها أبعادا عميقة الغور سواء في النفس أو الحياة، إذ لم يعد الرمز إشارة إلى موضوع أو إلى حالة متردية بل أصبح إشارات مشتتة تلامس أبعاد الكينونة الإنسانية وتخلق قارئا مشتت الفهم والقراءات والتأملات.

إنّ قراءة الشاعر المعاصر للموروث الشعري العربي في لغته ومجازاته وقراءته للتجربة الصوفية دينية وفنيّة من منظور جمالي مستحدث جعله يخرج رموزها إخراجا جديدا ويوصلها بتجربته الحاضرة حيّة ومشعّة ويتجاوز الاستعمال الرمزي المحدود.

وفي البلاغة العربية التي لم تنظر إلى الرمز من وجهة فلسفية وإنما من جانب رمزية المجاز بألوانه البيانية المعروفة وذلك لابتعاد الشعر العربي القديم عن التجديد والغموض إلاّ في قدر محدود. وما يضاف إلى هذا الكمّ التراثي من التجارب الشعرية القديمة هو قراءة الشاعر العربي المعاصر للموروث الشعري الغربي الحديث سواء

في مذاهبه الرمزية أو في شمولية رؤيته، وهذه المثاقفة الفنية لا تعني الفناء في الرمز الغربي وتراثه أو النقل الآلي.

وإنّما هو الانفتاح على التجارب الإنسانية العريقة والحاضرة من منطلق التعامل الجمالي والدلالي مع رموزها بما يوافق التصورات المحلية "وسيكون من قبيل المجازفة في إصدار الأحكام القول بأنّ الشاعر العربي يختلس رموز غيره، ذلك أنّ القراءة، ولتكن قراءة الشاعر العربي للنصوص الشعرية الغربية، إنما تخضع لشروط معينة[6].

الرمز الشعري هو تلخيص لتجربة ما من تجارب الإنسانية فمن حقّ أي إنسان كان وبالخصوص الشاعر أن يغترف الرمز الذي انطبع في نفسه سواء من ثقافته المحلية أو العالمية. في صراعية الوجود بين الحياة والموت والبقاء والفناء تتقابل الثنائيات المتضادة في ذات الشاعر المتلمسة لطريق الخلاص من لحظات السقوط والعجز سواء ما كان داخليا أو خارجيا محكوما بظروف واقعها أو استشرافا للحظات الحلم والأمل في التحدد والانبعاث، في ظل هذه الحركية تئنّ الذات بوجعها الكوني الذي يبحث معادل فني يلخّص المعاناة الفردية والتي تمثل معاناة جماعية ذلك أنّ ذات الشاعر ما هي إلا تلخيص لذوات متعدّدة، فهذا الصوت الجمعي الموحّد في صوت متفرّد تتلخص أصداؤه في دلالة رمزية تتنوّع وفق ضرورات الدلالات النفسية وحالتها قد يكون الرمز لغويا أو تاريخيا.

والجدير بالذكر أنّ شعرية الكتابة وحداثتها أسّست بناها النصية واستثمرت كلّ بنية بطريقة ووضعتها في المجال الشعري الذي يتفرّد بالتجاوز والتخطي لكل تقليد شعري.

وهذا ما يدخل في بنيات الشعر العربي الحديث و إبدالاته من خلال هجرة هذه البنيات من مجال إبداعي إلى مجال إبداعي آخر تنسلخ فيه عن غلافها الأول لتتزيّ بأغلفة جديدة مبتكرة ومبدعة لا عهد لأي قارئ بها. لا بد للمتلقي أن يكون جديدا أيضا.

إذ إنّ التأزم النفسي إلى درجة الانسداد يعطي للشاعر قوّة تفجير الرؤية التي تخترق باطن اللغة والتاريخ وتستخرج منها الرموز التي تمتلك صفة الدوام من جهة وصفة المطابقة على الحالة النفسية في لحظة من لحظاتها المحرقة من جهة ثانية، ذلك أنّ "الإنسان ولا سيما الشاعر، والفنان بعامة"ينفنس"الموضوعات الخارجية ويكسوها بمحتواه الداخلي برعافه الروحي، بحاجاته الأبدية المؤمنة، وبذلك يضفي عليها أزمته التي تخصّه محاولا أن يطمس التخوم التي تفصله عن الكائنات،عن الوجود ، عن المطلق في تعيّنه الخارجي."[7]

تمثّل الشاعر العربي المعاصر في نصوصه أنواعا من الرموز حسب الحاجة النفسية والسياقية والإبداعية فقد اختار الرمز اللغوي أو التاريخي من مجالات وفضاءات متنوعة منها (المجال التراثي ــ الصوفي ــ الطبيعي ــ الخاص...)

- يتّخذ التراث طبيعة جديدة عندما يدخل طبيعة الشعر ومجاله فليس هو بطبيعته الدينية كما نجد الرمز عند الصوفية أو بطبيعته اللغوية في المجال اللغوي. ذلك أنّ الشاعر المعاصر سما بتفكيره وفنه في استخدام الرمز إذ لم يفكر بالعقلية التي تؤطر للرمز مجالا محدودا كالعقلية الدينية مثلا.. ومهما كانت الرموز متوفرة لدى الشاعر فإنّها تبقى ناقصة ومحدودة الأبعاد مادات غير مرتبطة كل الارتباط بالتجربة الشعورية وإذا لم يحسن الشاعر استغلال دلالاتها، وبالتالي يفقد قوة التأثير الشعري. إنّ مقاربتنا في هذا الصدد لا تبحث على تفسير للرمز مهما كانت مجالاته، ولكن ينصب البحث عن فعالية بنية الرمز بدلالاته الممكنة في النص، إلى حوار البنيات الأخرى، فالرمز بنية ولكنه بنية ذات دلالات والمقترب النقدي يتهم بدراسة هذا الانتقال من البنية إلى الدلالة الرمزية.

تحقق بنية الرمز دورا أساسيا في بناء النص الشعري إذ أنّ طبيعة الرمز تجمع في وقت واحد بين الحقيقي وغير الحقيقي ذلك أنّ هذه الطبيعة الرمزية تدخل التأمل في فضاء

الغرابة والمستحيل وغير العادي وتقرّبه حتى كأنه ممكن ومحتمل الوقوع. إنّ التعامل مع الرمز بالمقترب النقدي الذي لا يحتمل ولا يتأول بل يحوّل الرّمز إلى مقولة عقلية فإنّه يجافي طبيعة الرمز الشعري التي تفترض حاسة نقدية تضفي على إشعاعات الرمز إشعاع التأويل في توليد الدلالات فيضحي الرمز الواحد رموزا دلالية لها علاقة بالتجربة الفردية من جهة وبالتجربة الإنسانية من جهة ثانية، إذ لا تقف المقاربة الدلالية عند المعنى الحقيقي والعادي للرمز فهذا فهم أوّلي يضيّق على الرمز رحابة عطاءاته ويغلق انفتاحه على الحقول الدلالية، بل تتخطاه إلى المعنى المتعدّد والعميق عمق المعاناة الإنسانية في تجاربها الممتدة في التاريخ، أي إلى غير الحقيقي وما فوق العادي لانّ الرمز الشعري يمتلك سمة الامتلاء بالمغزى بالإيحاء والدلالة.

إنّ اتجاه شعرائنا المعاصرين إلى الرمز التراثي واستحضار شخصياته في نصوصهم يأخذ أكثر من معنى وأكثر من سبب وهذا يبقى رهين الدراسات التي تهتم بالرمز من هذه الجوانب. أمّا ما يهم المقاربة الدلالية فهو سؤالها الشعري الباحث عن فنية الرمز ودلالته كرمز يمثل التجربة الفردية للشاعر والتجربة الجمعية التي تطول الإنسانية في رحلتها التاريخية، فلا يعنيها دوافع اختيار الشاعر لنوع من الرموز دون نوع آخر.

إنّ الشاعر المعاصر يعود إلى التراث العربي وينتقي منه رموزه ويمتلكها فنيا وجماليا ويدخلها في صميم عمله الشعري نظرا لانسجامها مع مستواه النفسي وتجربته الفردية التي تمثل المرآة المقابلة للتجربة الإنسانية والتي احتضنها الرمز في شخصية تراثية كانت عادية وحقيقية ولكنها أصبحت غير حقيقية لأنها مثّلت التجربة الإنسانية. وتمثل الرموز التراثية العربية لشخصيات تاريخية مثل المعري ــ المتنبي ــ أبو نواس ــ الخيام ــ أبو تمام... وهذا في مجال الأدب.

أما في التاريخ(الحجاج- خالد بن الوليد- صلاح الدين الأيوبي- هارون الرشيد - الإمام الحسين بن علي...) وفي الدين نجد (المسيح ـــ الخضر ـــ قابيل وهابيل ـــ) أمّا الشخصيات الشعبية (سندباد - زرقاء اليمامة...وفي التصوف (السهروردي ـــ النّفري- الحلاج - ابن العربي - الغزالي - فريد الدين العطار...) وقد اتخذ الشاعر المعاصر طرقا فنيّة في توظيف هذه الرموز منها أسلوب القناع يختفي وراء الشخصية الرمزية ليعبّر عن تجربة أو عن موقف.

- نختار بعض النماذج الشعرية المعاصرة ونقاربها دلاليا حتى نقف على دلالة البنية الرمزية في النص. قصيدة البعث والرماد للشاعر أدونيس يتقدّم فيها الرمز الأسطوري"الفينق"هذا الطائر الخرافي الذي كلّما أدركه الهرم يحرق نفسه ليعود من رماده فتيا قويا فهو رمز التجديد والانبعاث.

إنّ قراءة القصيدة التي تأخذ طبيعة دراسية تومئ إلى معاناة الشاعر الداخلية وتوقه إلى التجدد والخلق والانبعاث فالتوهج والاحتراق والنار والجمر تشكل المصهر الذي تتطهر فيه ذات الشاعر وتصقل كالمعدن الذي يزداد لمعانه كلما ازداد احتراقه الشاعر الخلاق المبدع والمجدّد لا يؤمن بالتوقف أو الاجترار فهو في رحلة التجديد والتجدد دون انقطاع مثل طائر"الفينق" المتجدّد في حياته بالاحتراق. قصيدة البعث و الرماد، هي عاصفة ثائرة على كل مجالات الحياة.

أحلم أنّ شفتيّ جمرة
قرطاجة العصور: كل حجر شرارة
و الطفل فيها- ذبيحة المصير
أحلم أنّ رئتي جمرة

دلالة النار والاحتراق تحيط بكل الكائنات حتى الشاعر ينفث نارا من رئتيه حتى يزيح ركام العصور المتحجر وذلك لإيمانه بأنّ البناء لا يقوم إلاّ عن طريق الهدم...هذه

الرؤية التي تغطي بظلالها جميع الفضاء النصي السدلالي، يوظف الشاعر رموزه الأسطورية كالفينق الذي يتحد به الشاعر فكلاهما ينصهران في نار التجدد واحتراق البعث ثم لا ينسى الشاعر الرموز التراثية العربية التي تضفي النواة المركزية للنص الشعري نموّا في الدلالة الأساسية:

أحلم أنّ رئتي جمرة

يخطفني بخورها يطير بي لموطن

أعرفه أجهله

لبعليك ــ مذبح

يقال فيه طائر مولّه بموته

يحترق

والشمس من رماده و الأفق

القصيدة تتحرك في عدة مستويات تتفاعل فيما بينها:

1 مستوى اللاوعي : الأسطورة وحلم الشاعر.

2 مستوى الوعي : الواقع بأبعاده المختلفة.

أمّا قصيدة " الصقر " يوظف الشاعر أدونيس الرموز التراثية لتحقيق الإسقاط الذاتي عليها، فبعد شخصية صقر قريش " عبد الرحمن الداخل " التي تغدو شكلا فنيا حاملا لمفهوم التحوّل والاستمرار، يصعّد أدونيس من كثافتها حتى أضحت كجرعة مركّزة تستجمع فكرة التجدد والاستمرارية في خط التضاد في صورة درامية متوجهة ثم نلتقي بشخصية أبي التمام:

جئت إلى بغداد

في سعف النخل وماء النهر

في رئة العصفور

كان أبو تمام

مشتعلاً كالجمر

خلق شتاء الليل والأحلام

أبو تمام رمز التجديد والتحوّل، رمز التمرّد على المألوف الشعري وإبداع الكتابة الجديدة في عصره... وأبو نواس أيضا يمثل رمز التجديد يحمل قارورة الكيمياء رمز التحويل والتفاعل والتغيير:

رأيت النواسي يهذي ويحضن قارورة الكيمياء*

مؤذنا بالعبورْ:

كل رمح حمامهْ

كل أرض سماء

أما قصيدة " إسماعيل" المأخوذة من ديوان أدونيس وهو "كتاب الحصار" يعلق الشاعر معاناته وتجربته على الشخص إسماعيل رمز التضحية والفداء ويتخذه كقناع ليبني قصيدته في جوّ درامي يبرز فيه الصراع بين الماضي والحاضر ويستحضر الأصوات التي عانت المعانات ذاتها التي يعيشها الشاعر ويتألم بها، إنها أصوات سبقت عصورها و لم تجد من يفهمها، هذه الأصوات التراثية التي عانقت المستقبل.

أعطيت إسماعيل أجمل ما رأته طفولتي

ليكون لي أن أسمع الصوت الذي همسته حنجرة الغسقْ

فبعد شخصية إسماعيل عليه السلام ابن النبي إبراهيم والذي لبّى طلب أبيه ثم نزول الفداء، تتداخل شخصية الشاعر الحامل لواء التغيير والثائر على الماضي وضلاله التي امتدت إلى الحاضر، ويستحضر الشاعر رموزا أخرى من التراث:

متدثرا بدمي، أجيء - يقودني

حلم ويهديني بريق
هيهات بيتي لابن رشد
وأبي النواس، والرّضى
وكتبت للطائي أن يأتي، وقلت لذي القروح: أبو العلاء أتى
وأحمد، وابن خلدون
سنعلن آية الأحشاء، وسوسة السدم الأوّلي
ونفكّك اللغة الدفينة
في غابة الأشياء، نقرأ صخرة

انطلاقا من النماذج السابقة والمختارة من شعر أدونيس نسجّل ملاحظة تخص الجانب البنائي للرمز في العمل الشعري الأدونيسي الذي قد يصل إلى حدّ التجريد في توظيف الرمز وأيضا يوظف أدونيس المحاور والمستويات في علاقات متعدّدة ومتنوعة سواء من حيث التقابل / التناظر / التضاد/ التداخل...ولكن في وحدة تامة متآلفة العناصر والمستويات بين مستوى الدلالة الرمزية والمستوى النفسي في سياق خاص بالتجربة التي يرفعها أدونيس من دائرة التجربة الفردية حتى يجعل منها تجربة جيل بأكمله...وكأنّ أدونيس يبدأ بالدلالة الرمزية لينتهي إلى بنية الرمز أي وفق عملية عكسية، فهولا يتكئ على الرمز أوّل، بل يستند على إيحاءاته ليشكل منها اتحاده بها حتى يصل في آخر المطاف إلى عملية الغناء بين شخص الشاعر والرمز التراثي أو الأسطوري.

– ونقطة أخرى هي عملية الشحن والتكثيف الدرامي الموزّع بالتساوي بين الشاعر كرمز الجيل الحاضر والغوص إلى باطنه الجواني وبين الرمز من خلال شخصياته في رحلتها التاريخية بتجاربها الثقيلة والمريرة.

- ونقطة أخرى هي مهارة أدونيس في استحضار رموزه التاريخية بكثافة شعرية فائقة تتظافر فيها الصور والانفعالات واللغة والإيقاعات، بشكل تتداخل فيه الأزمنة والتجارب إلى حدّ التلاحم في بنية واحدة يصعب فيها التجزيء أو التفتيت...وهذا نظرا أيضا للبناء الدرامي القصصي المتنامي من نواة مركزة مشعة وممتدة إلى البنيات الأخرى في النص.

- يدخل الشاعر المعاصر بتجربته الشعرية إلى محاورة الرمز الصوفي في إغراق ذاتي، يلامس معجمه و ينتقي منه الدلالات والإشارات الخاصة التي لا تفتح سبل إدراكها إلاّ من تذوق خاص بمسالك الصوفية وإشاراتهم ومقاماتهم وخصوصا إذا وظف الشاعر الرموز الخاصة: يقول عفيفي مطر في قصيدته (قراءة)

تعلو قامتي في جسد الحلم، أخي
الشجر الطالع في وجهه معقود
ودمع طازج الخضرة مكتوبا على وجهي ينابيع
وأقواسا من الماء الهلالي
وتعلو قامتي في جسد الحلم:
صهيل وردة خافقة في عروة القلب
ينابيع دم معتمة تصحو
خيول طلعت من جزء (عم).[7]

إنّ تكثيف الرمز في المناخ الصوفي يصل إلى حدّ التعقيد نظرا لخصوصيته في التجربة الصوفية التي تمتلك إشاراتها وعباراتها الخاصة بلغتها الدالة. ففي هذا المقطع يوظف الشاعر رمز الدم الذي يشير على فعل الولادة وأيضا إشارته القرآنية في قوله:

خيول طلعت من جزء (عم)

تدعو القارئ إلى التأمل والتأويل لتخريج الدلالات والدخول لحظات المكاشفة التي تنأى عن الفهم العادي. كما أشرنا سابقا إلى أنّ المعجم الرمزي في النص الشعري المعاصر تنوعت مصادره إذ لم يترك شاعرنا أي رمز إلاّ وأعاد صياغة دلالته، نماذج شعرية: يقول عفيفي مطر

الكتابات– البروق الورق الأخضر والماء

(الحروف أمة من الأمم مخاطبون ومكلفون)

ينابيع دم معتمة تصحو،

خيول طلعت من جزء "عم"

اتسعت دائرة الأرض

سلام هي حتى مطلع الفجر...سلام.

فهذا استحضار لنص صوفي لمحي الدين بن عربي في باب (ذكر مراتب الحروف) من الجزء الخامس من السفر الأول من (الفتوحات المكية) حيث يقول ابن عربي:اعلم وفقنا الله وإياكم أن الحروف أمة من الأمم فمخاطبون ومكلفون، وفيهم رسل من جنسهم"

إن حضور النص الصوفي الغائب في القصائد المعاصرة يمثل امتزاجا واندماجا وفناء في هذا التراث وفق محاورة حداثية أعطت للنص الشعري توجها وإشعاعا وفي الوقت نفسه إيغالا في الباطن.. ولهذا نجد اصطلاحات الصوفية وإشاراتهم وعباراتهم مكثفة ومتخفية وصريحة يقول الشاعر:

وطال الوقوف في مقام"كـــــــن"

تذكرت ومن تحتي نهر الصور الحية يجري

والينابيع تواشجن كما أقضي

تذكرت فجاءت كرة الأرض وجاءت السماوات

وأبدلن ثيابا بثياب

ولقراءة قصيدة-أدونيس-وضعية أخرى نظرا للتداخل النصي المتجانس من حيث البنية ومن حيث تجاور النصوص فيها الخطابات العربية القديمة والحديثة.

يظل الخطاب الديني يمثل العنصر البارز والفاعل انطلاقا من القوانين المتحكمة في امتصاصه وإدخاله مجال الحوار ليؤسس الكتابة الجديدة في الحداثة الشعرية.

في قصيدة-هذا اسمي- يكشف العنوان عن النص الديني الغائب ذي صلة مباشرة وفورية بالقرآن الكريم حيث تتصاعد عملية التداخل في قوله:

ما حيا كل حكمة هذه ناري

لم تبق-آية-دمي الآية

هذا بدئي

محاورة النص الأدونيسي لنص غائب تتبدى في قوله-ماحيا-معلنا عن تداخل نصي ينفتح على نص صوفي لابن عربي المتقاطع معه في دلالة المحو البارزة في وصيته"انس ما علمت وامح ما كتبت وازهد فيما جمعت"فالنص التراثي يمثل عنصرا بنائيا للإيقاع النصي.

يقول عبد الصبور في قصيدة"الخروج" موظفا النص القرآني بطريقة خفية تعبيرا عن خروج الذات على واقعها المتردي:

حجارة أكون لو نظرت للوراء

حجارة أصبح أو رجـــــوم

هذه إشارة إلى قصة سيدنا لوط عليه السلام وقومه.

وفي قصيدة البكاء بين يدي زرقاء اليمامة يقول الشاعر أمل دنقل يقول:

فها أنا على التراب سائل دمي

وهو ظمئي يطلب مزيدا

"ما للجمال مشيها وئيدا.."

"أجندلا يحملن أم حديدا"

وقد أشار د. محمد بنيس في كتابه ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب إلى القوانين التي تمّ بها توظيف واستثمار الرمز في النص الشعري المعاصر ومنها قانون الاحترار الذي لا يدل إلا على عجز في إدراك ماهية الرمز وشعريته من قبل شاعر يسلب الرمز طاقته الإيحائية ويفرض عليه تعسفا في الاستعمال وإدخاله بقوة الفعل إلى سياق لا يتلاءم معه.ودوافع ذلك كثيرة تتصل بثقافة الشاعر وموهبته.وأيضا قانون الامتصاص ففيه تعديل لدلالات الرمز بما يستجيب للتجربة الشعورية انطلاقا من فهم الشاعر لأبعاد الرمز فيتحكم فيها. أمّا القانون الثالث فهو الحوار الذي يمثل مقدرة فائقة في تملك الرمز والتفاعل مع أجوائه وفضاءاته، والغوص في منحنياته، إذ يكون الشاعر أكبر من الرمز يمارس عليه سلطة التدمير داخل السياق ولكنه تدمير جمالي شعري تتوزع أثناءه شظايا الرمز في النص لتمس كل بنية فيه فيضحى الرمز دالا وتكون قصيدة"اسماعيل" للشاعر أدونيس المشار إليها سابقا أثناء التحليل خير ممثّل لريادة التجربة المتعاملة مع الرمز فيها من التجاوز والخلق الفني الكثير.

استطاع الشعراء المعاصرون أن يبتكروا رموزا خاصة استجابة لحالات النفس وتوقها ومعاناتها، عن طريق ملاحقة هذه الرموز الخاصة ذات الدلالات والتي تدخل في نسيج بنية النص وفي صميمه وهذا من منظور حداثي يدخل في نطاق الكتابة الجديدة التي تتكئ على جمالية الدلالة في كل البنيات وخصوصا بنية اللغة التي تصبح ترميزية، لها فعل الإيحاء والتأثير، وذلك لكونها ولدت من رحم الشاعر حيّة نابضة بالحركة قد يعرفها القارئ ولكن لا يدرك احتمالات الدلالة فيها ممّا تحدث لديه الصدمة والدهشة، فبعدما كانت الكلمات مألوفة ذات علاقات حميمة مع قارئها

أصبحت مستعصية وعميقة وبعيدة تهز أفق انتظاره، وتدعوه إلى بناء علاقات جديدة ذات حساسية شعرية جديدة حداثية.يقول صلاح عبد الصبور:

يا أهالي الكهف قوموا واصلبوني من جديد

إنني آت من الموت الذي يأتي غدا

آت من الشجر البعيد

وذاهب في حاضري- غدكم

.. ..

وقد نتساءل ما الجديد الذي أضافه هذا التوظيف الإبداعي للتراث بكل مستوياته للقصيدة المعاصرة؟ يمكننا أن نستخلص السمات الجمالية التي أضافها هذا التوظيف من خلال تحقق الظواهر التالية:

- سمة الحسية:التي أضحت تشكل أساس الصورة الشعرية في القصيدة المعاصرة، وأضحت أكثر شمولا واتساعا لعلاقات الداخل والخارج.
- سمة التكثيف: استطاع الشاعر المعاصر أن يذيب ويمازج بين جميع العناصر المتآلفة والمتناقضة في ومضة واحدة تلمع في ثنايا القصيدة.
- سمة الجدة والابتكار: ما أحدثته التقنية الجديدة في التعامل مع التراث أحدث غرابة ودهشة لدى المتلقي الذي راح يبحث عن طرق جديدة لقراءة النص الشعري المعاصر انطلاقا من هذا التعامل الحداثي مع النص التراثي الغائب.

الهوامش:

* د.نعيم اليافي أوهاج الحداثة –دراسة في القصيدة العربية الحديثة–منشورات اتحاد الكتاب العرب–1993–ص51.

*1– إبراهيم رماني: الغموض في الشعر العربي الحديث ص274.

2–عبد الله راجع:القصيدة المغربية المعاصرة ص 232.

3– إبراهيم رماني: الغموض في الشعر العربي الحديث ص274.

4– أدونيس : زمن الشعر ص 160.

5–إبراهيم رماني: الغموض في الشعر العربي الحديث ص275.

6–عبد الله راجع: القصيدة المغربية المعاصرة ص 264.

7–يوسف سامي اليوسف:الشعر العربي المعاصر ص 128.

*–للمزيد من التوسع، راجع:د.يوسف الحلاوي، الأسطورة في الشعر العربي المعاصر ص213 وما بعدها.

8– إبراهيم رماني: الغموض في الشعر العربي الحديث ص280.